الفصل الرابع

العولمة والمجتمع الاستهلاكى

(١)

العبودية الاختيارية

هناك ألف طريقة لكتابة التاريخ الإنسانى، إذ أن هناك ألف طريقة لقراءة التاريخ وفهمه. كتابة التاريخ هى كرواية قصة، وهناك كما نعرف عدد لا نهائى من الطرق التى يمكن أن نروى بها أية قصة مهما كانت بسيطة، فما بالك برواية قصة مثيرة كقصة تطور الإنسان؟.

لقد نظر البعض إلى التاريخ الإنسانى فرأوا فيه دورات متكررة تشبه الدورة التى يمر بها الفرد فى حياته: يولد وينمو ويشيخ ثم يموت، ثم يولد غيره وينمو ويشيخ ثم يموت، فهكذا رأوا بزوغ الحضارة وازدهارها وأفولها، ثم بزوغ غيرها بعدها وأفولها وهكذا، وليست هناك بالضرورة، فى نظرهم، أفضلية لحضارة على الحضارات التى سبقتها.

بينما رأى آخرون فى التاريخ تقدما مستمرا أو صعودا مستمرا من الأسفل إلى الأعلى، كل فترة هى أعلى من سابقتها على «سلم» الرقى، ومن ثم فهى أفضل، وبالتالى فإن المستقبل لابد أن يكون أفضل من الحاضر، كما أن الحاضر أفضل من الماضى. على العكس من ذلك بالضبط، نظر آخرون إلى التاريخ فرأوا فيه تدهورا مستمرا من الأفضل إلى الأسوأ، وكأننا ننزل باستمرار على درجات السلم بدلا من أن نصعد إلى أعلى، ومن ثم اعتبروا أن أزهى فترات التاريخ الإنسانى هى فترة موغلة فى القدم وتوقعوا أن يكون المستقبل أسوأ من الحاضر.

ليس هذا هو كل ما فى الأمر: دورات متكررة، أو صعود إلى أعلى أو تدهور إلى أسفل، بل هناك أيضا فوارق شاسعة بين ما يؤكد عليه المؤرخون وما يتجاهلونه أو يهملون شأنه . البعض يرى التاريخ الإنسانى وكأنه قصة نمو عصبيات أو قوميات وسيطرتها على غيرها، يعقبها ضعف وذبول وزوال وقيام عصبيات أو قوميات جديدة، بينما قرأ البعض التاريخ على أنه قصة تحديات طبيعية أو اجتماعية تستدعى استجابة من الناس، والاستجابة قد تكون إيجابية أو سلبية، فإذا كانت إيجابية قامت الحضارة وازدهرت، وإذا كانت سلبية اندثرت الحضارة أو تدهورت.

ولكن آخرين نظروا إلى التاريخ فلم يروا فيه إلا صراعات بين طبقات، ونظر آخرون فرأوا فيه قصة تطور تكنولوجى مستمر يترتب عليه كل تطور آخر فى كل مناحى الحياة، بينما رأى فريق آخر أن العامل الحاسم هو تطور الفكر الإنسانى وأنه هو المسئول عن كل تطور آخر.

كتّاب آخرون رأوا التاريخ وكأنه تاريخ ما فعله العظماء، فإذا بالتاريخ فى نظرهم مجرد تراكم لأحداث ترتبت على ظهور بعض العباقرة العسكريين أو السياسيين أو العلماء، وعلى ما أتوا به من أعمال أو اختراعات أو ما ارتكبوه فى بعض الأحيان من جرائم.

التاريخ فى نظر البعض أحداث تحدث نتيجة للصدفة المحضة، ولكنه فى نظر آخرين أحداث تتبع قوانين صارمة قد يسهل أو يصعب اكتشافها ولكنها موجودة.

التاريخ فى نظر البعض هو نتيجة إرادة إلهية تصدر عن حكمة قد ندركها أحيانا وقد لا ندركها، ولكن التاريخ فى نظر آخرين من صنع الإنسان وحده، الذى يتصرف بحكمة أحيانا وبحماقة فى أحيان أخرى.

من الممكن أن نضيف إلى تلك القائمة عشرات من الأصناف الأخرى من النظر إلى التاريخ، ولكن فى هذا الكفاية. والمهم بعد ذلك أن نلاحظ أن هذه النظرات (أو النظريات) على اختلافها الشديد، قد لا تكون بالضرورة متعارضة أو متضاربة، وإنما هى فى معظم الأحيان، تأكيد على جانب من الجوانب أكثر من غيره، دون أن يعنى ذلك بالضرورة إنكار وجود الجوانب الأخرى، حتى وإن بالغ أصحاب بعض هذه النظريات بدرجة قد توهم بهذا الإنكار وهذا التعارض.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يسمح لى القارئ بأن أضيف إلى آلاف القصص التى رُوى بها التاريخ قصة واحدة أخرى؟.

هذه هى قصتى إذن، إذا سمح لى القارئ بروايتها.

□□□

من أشد الرغبات إلحاحا على الإنسان منذ مرحلة متقدّمة جدا فى تاريخه، الرغبة فى أن يزيد ما لديه من «وقت الفراغ» أى الوقت الذى يستطيع فيه أن يمارس بحرية أى نوع من النشاط أو ألا يمارس أى نشاط على الإطلاق ، ويستسلم فيه للراحة التامة.

إنى أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الرغبة هى من رغبات الإنسان الأساسية ، وجدت معه منذ نشأته ، ولعلها تستند إلى حاجة بيولوجية، بل قد نجد صورًا قريبة منها حتى لدى الحيوان ، بما تتضمنه من ميل إلى تقليل حجم الجهد المبذول لإشباع الحاجات الأساسية (وأهمها الحصول على الطعام) إلى الحد الأدنى ، أى أن يفرغ من العمل الضرورى فى أقل وقت ممكن ، وبأقل جهد ممكن ثم يبدأ فى اللعب.

هذه الرغبة ، أو الميل أو النزوع الطبيعى إلى زيادة كمية الفراغ ، هى التى تفسر لنا التطور المستمر فى التكنولوجيا (أى طرق إنتاج السلع والخدمات) منذ قام الإنسان بصنع أبسط الأدوات الحجرية لتسهيل الصيد ، أو أول أنواع العصىّ لكى يصل إلى ما لا تستطيع يده المجردة الوصول إليه ، أو منذ اكتشف لأول مرة كيف يشعل النار ، أو الزراعة أو استئناس الحيوان.. الخ كل هذه الاكتشافات والاختراعات لم يكن الهدف منها ، فى التحليل الأخير ، فضلا عن استمرار الوجود نفسه ، إلا تقصير يوم العمل وإطالة وقت الفراغ.

ولكن الإنسان لابد أنه اكتشف أيضا ، منذ وقت مبكر جدا ، أن من أكثر الوسائل فعالية لإطالة وقت الفراغ ، هو قهر إنسان آخر. فمن البديهى أنه يمكنك أن تطيل وقت فراغك بأن تحول مهمة العمل إلى غيرك ، وتتفرغ أنت للعب. إن من الممكن (ومن المفيد) أن ننظر هذه النظرة إلى مختلف صور القهر التى مارسها الإنسان عبر تاريخه الطويل ، ولا زال يمارسها.

فلابد أن الرجل مثلا ، قد اكتشف منذ وقت مبكر ، أن قهر المرأة وسيلة فعالة جدا لتمكينه من إطالة وقت فراغه ، فيعهد إليها بالأعمال التى لا يريد هو أن يقوم بها ومن ثم اخترع فكرة أنه ، أى الرجل ، أكثر ذكاء وأقدر على الابتكار ، وعلى فهم المشكلات السياسية العويصة.. إلخ ، وذلك حتى يتمكن ، دون تأنيب من ضميره أو لوم من أحد ، من الجلوس على كرسى وثير وهو يدخن سيجارته أو غليونه ، ليقرأ صحيفة اليوم ، ريثما تنتهى المرأة من غسل الأطباق أو طهى الطعام ، أو أن يجلس بالقهوة مع أصحابه يتسلى بلعب النرد بينما تقوم هى بتنظيف البيت ، أو كالذى نراه فى المجتمع الصناعى الحديث ، والمسمى

بالمتقدم، من قيام المدير (الذى هو فى العادة من الرجال) بإصدار الأوامر واتخاذ القرارات الحاسمة بينما تجلس السكرتيرة فى صبر لتكتب أوامره على الآلة الكاتبة ، أو تحضر له القوة فى مكتبه وهى فى كامل زينتها.

نفس الشىء يمكن أن يقال عن قهر الرجل الأبيض للرجل الأسود ، وصولا إلى نفس الهدف: إطالة وقت الفراغ الذى يتمتع به الأول على حساب الثانى ، ومن صوره الصارخة التى كثيرا ما شاهدناها فى الأفلام ، صورة الرجل الأوربى الجالس فى شرفة بيته الخشبى فى أواسط أفريقيا ، وقد استغرق فى النوم فى وسط النهار من شدة الحر ، بينما وقف رجل أسود يحرك له مروحة ضخمة ليخفف عنه من حرارة الجو أو يقوم بطرد الذباب عن وجهه.

لهذا الهدف نفسه إذن ، تستعمر الدول الكبرى الدول الصغيرة ، وتضطهد الأغلبية الأقلية ، ويستغل رب العمل عماله والمخدوم خدمه.. إلخ . كما أن من الممكن القول بأن الصراع على تملك وسائل الإنتاج (سواء كانت أرضا زراعية أو آلة أو مصنعا أو بئر ماء) وحرمان الآخرين منها ، كان دائما يتم لنفس الهدف: أن يتمكن صاحب الأرض أو المصنع من التمتع بوقت فراغ أطول بينما يقوم بالعمل آخرون. ويمكن القول بأن هذا هو الذى يفسر لنا أيضا لماذا ظل العمل اليدوى محتقرًا على مرّ العصور ، فهو الدليل الأكيد على قلة ما يحوزه القائم به من فراغ. بل ولعل التطلع إلى الالتحاق بطبقة أعلى هو فى الأساس تطلع إلى مزيد من الفراغ ، إذ نلاحظ أن رموز هذا الصعود على السلم الاجتماعى هى فى معظم الأحوال رموز لكثرة الفراغ ، سواء تمثل الرمز فى حيازة السيارة الخاصة أو كثرة الخدم ، أو ارتداء الملابس النظيفة الفاتحة اللون التى لم تتلوث بأى أثر من آثار العمل اليدوى.. إلخ.

لعل هذا هو الذى يفسر لنا أيضا سحر التكنولوجيا الحديثة لنا جميعا، بل ولماذا يقع الناس بهذه السهولة فى شباك الحضارة الغربية . فالسيارة الخاصة والوجبات السريعة والمكنسة الكهربائية والمصور الكهربائى والغسالة الأتوماتيكية.. الخ كلها وسائل لإطالة الفراغ ، وفى هذا على الأرجح يكمن سحرها.

كان الإنسان قادرًا دائما على أن يبتدع من النظريات ما يبرر منه قهر غيره ، حتى يسهل عليه تحقيق هذا الغرض: إطالة وقت الفراغ. لقد رأينا فى حالة قهر الرجل للمرأة أنه أشاع أن الرجل أكثر ذكاء وقدرة على الابتكار ، ولكن الحيلة قد تكررت فى ميادين أخرى وعلى مرّ العصور. فلتبرير التمييز العنصرى أشيع أن الأسود أقل من الأبيض ذكاء، واتهمت الأقليات دائما بالغباء والكسل وسوء الخلق لتبرير قهر الأغلبية لها. وأرسطو العظيم نفسه قدم لنا نظرية لتبرير نظام الرق ، لكى يتفرغ هو وأصحابه للفلسفة (دون أن يكون سيئ النية بالطبع) . وسانت توماس الأكوينى قدم تبريرا فلسفيا لنظام الإقطاع . والاقتصاديون التقليديون وأصحاب الدارونية الجديدة قدموا نظريات باهرة لتبرير الرأسمالية.. إلخ.

ولكن يجب أيضا أن نعترف بأن القهر قد تغيرت صورته على مرّ العصور ، وقد تكون حدته قد خفت شيئًا فشيئًا مع كل تقدم فى التكنولوجيا ، أو هكذا على الأقل يبدو الأمر لأول وهلة. فالتقدم المستمر فى طرق الإنتاج سمح أكثر فأكثر بزيادة الإنتاج وزيادة سهولة الحياة ، مما سمح للفئات المقهورة بأن تتمتع هى نفسها بكمية متزايدة من الفراغ. ففى البداية كانت الوسيلة الوحيدة التى يمكنك بها أن تتمتع ببعض الفراغ هى أن تقتل غريمك أو منافسك ، إذ أن الموارد المتاحة (كالأراضى المتاحة للصيد أو المراعى أو الأراضى الصالحة للزراعة) كانت محدودة

لدرجة لا تسمح لك أنت وهو (أو لقبيلتك وقبيلة أخرى) بالبقاء على قيد الحياة في نفس الوقت ، فكان على القبيلة لتستمر في الحياة أن تغير على قبيلة أخرى وتعمل فيها تقتيلا رجالا ونساء وأطفالا قبل أن تستولى على أرضها أو مخزونها من الغلال (وهذه هى الطريقة التى يتبعها بعض الحيوان عندما يتنافس مع غيره على ضحية فيقتله لكى ينفرد بها). ولكن مع تقدم التكنولوجيا ، تعدن الإنسان قليلا واكتفى باستعباد الآخر بدلا من قتله ، فيجبر الرقيق على القيام بكل الأعمال التى لا يرغب السيد فى القيام بها. ثم ارتقى نظام الرق إلى نظام الأقنان فى ظل الإقطاع، ثم ارتقى نظام الأقنان إلى نظام العامل الأجير فى ظل الرأسمالية. وفى كل خطوة كان المقهورون يتمتعون بفراغ أطول مما كانوا يحصلون عليه فى المرحلة السابقة ، لمجرد أن هذا قد أصبح ممكنا تكنولوجيا.

كان من الممكن إذن أن نتصور أن يأتى الوقت ، مع التقدم المستمر فى طرق الإنتاج ، الذى يصبح من الممكن فيه أن يتمتع الجميع بدرجة عالية من الفراغ ، ومن ثم ينتهى القهر إلى الأبد: ينتهى قهر الرأسمالى للعمال، وقهر الرجل للمرأة ، والمدينة للريف ، والأبيض للأسود ، والشمال للجنوب.. إلخ.

ومن المؤكد أن هذا هو الذى كان بذهن كارل ماركس عندما تصور أن الاشتراكية ثم الشيوعية لابد أن ينتصرا فى النهاية ومن ثم يزول القهر إلى الأبد ، وتعم المساواة وتزول أداة القمع الأساسية وهى الدولة.

ولكن الذى حدث للأسف لم يكن كذلك ، بل إن ما حدث لم يكن ماركس – على الأرجح – ليتصوره . كانت ثقة ماركس فى التكنولوجيا عالية جدا ، وقد ثبت أنها أعظم مما كان يتصور. أما ثقة ماركس فى

الإنسان ، فقد ثبت للأسف أنها أكبر بكثير من الحقيقة ، إذ ثبت أن الإنسان أسوأ بكثير مما تصور ماركس . لقد كان من الممكن أن نتصور أن رغبة الإنسان فى زيادة وقت فراغه لابد أن تكون لها نهاية ، وكان من الممكن أن نظن أنه مادام وقت الفراغ لا يمكن عقلا أن يزيد عن ٢٤ ساعة فى اليوم ، فلابد أن يكف الإنسان ، فى لحظة ما ، عن السعى لإطالة وقت فراغه. ولكن ثبت أن الأمر ليس كذلك ، وذلك لثلاثة أسباب على الأقل:

السبب الأول: هو أنك حتى لو أعفيت تماما طوال الأربع والعشرين ساعة كل يوم ، من أى عمل إجبارى ، فأنت لا شك تقوم خلال اليوم بنشاط ما ، ولو تمثل فى اللعب أو تناول الطعام.. الخ وكل هذا النشاط الاستهلاكى المحض يتطلب جهدًا يمكن اختصاره أو تخفيفه. فشباك السيارة يمكن أن نحاول أن نجعل فتحه أتوماتيكيا بدلا من بذل الجهد لفتحه لتحريك عضلات اليد . والحذاء الذى ترتديه لكى تذهب للعب التنس يمكن أن يصبح أقل وزنا مما يخفف عليك الجهد الذى تبذله فى المشى ويزيد من سرعتك . والحصول على صورة فوتوغرافية يمكن أن تختصر مدته فلا تكون بحاجة إلى انتظار تحميض الصورة بل تخرج لك الصورة بمجرد إلتقاطها . وقل مثل ذلك عن صنع القهوة أو حلاقة الذقن.. إلخ . كلها أعمال يمكن أن تختصر مدتها وتحويلها إلى أعمال فورية. لا نهاية إذن ، فيما يبدو ، لما يمكن أن تفعله لزيادة وقت الفراغ.

والسبب الثانى: أن الإنسان لديه خوف مستمر من أن يضطر فى وقت ما فى المستقبل إلى فقدان ما يتمتع به الآن من فراغ. نعم أنا أتمتع الآن بالفراغ ، ولكن ما الذى يضمن لى أن أتبتع به فى المستقبل؟ لابد أن أحتاط للأمر. والإنسان يعيش فى العادة وهو يحمل شعورا لا مبرر

عقلانى له ، ولخصه أحد الكتاب بقوله وهو على فراش الموت «إنى أعرف أن كلنا يجب أن نموت ، ولكنى كنت دائما أحمل شعورا دفينا بأنه قد يحدث استثناء فى حالتى أنا شخصيًا»! إن هذا «الاحتياط للمستقبل» قد يكون مكلفا للغاية ، إذ أنه بدوره لا نهاية له.

والسبب الثالث: أن الإنسان يحب أن يضمن الفراغ ليس لنفسه فقط، بل ولأولاده وأولاد أولاده.. الخ ، وهذا أيضا هدف ليس له نهاية.

إذا كان الأمر كذلك حتما ، أى أنه ليس هناك فى الحقيقة نهاية لسعى الإنسان لإطالة وقت الفراغ ، فإنه يترتب على ذلك أنه ليس هناك نهاية أيضا للقهر ، فسيستمر الإنسان فى محاولة قهر غيره طمعا فى المزيد ثم المزيد من الفراغ . يضاعف قوة هذا الدافع لقهر الغير داء آخر فى الإنسان هو أن درجة استمتاعه بالفراغ تتوقف للأسف على مدى تميزه عن غيره فى ذلك ، أى أن الأمر نسبى إلى حد كبير ، فيزيد استمتاعى بالفراغ كلما قل ما تتمتع أنت به من فراغ ، وإذا رأيت غيرى يتمتع بنفس الدرجة من الفراغ التى أتمتع بها فقد يزول أو يضعف استمتاعى به بعبارة أخرى ، قد يكون أحد الدوافع لاستمرار القهر هو مجرد هذا الدافع الدنىء إلى أن أصبح أفضل منك أو متميزا عنك ، وهذا يستدعى ليس فقط إطالة وقت فراغى بل تقصير وقت فراغك.

ولكن لعل الكارثة الحقيقية ، والسبب الأكبر لاستمرار القهر ، فى صورته الحديثة على الأقل ، هو شىء غير هذا كله ، وهو أن الإنسان على الرغم من سعيه المستمر لإطالة وقت فراغه ، قد اتضح للأسف أنه عاجز إلى حد كبير عن الاستمتاع «بفراغ» حقيقى. إن الإنسان ، فيما يبدو ، يتصور قدرته على الاستمتاع «بالحرية» بأكثر كثيرا من

الحقيقة ، وهو فيما يظهر ، إذا حصل على هذه الحرية بالفعل لا يعرف في معظم الأحيان ما الذى يفعله بها. إنه يتصور أنه يتوق إلى بضع ساعات في نهاية اليوم يفعل خلالها ما يشاء ، ثم يحصل على هذه الساعات فإذا به لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ، وإذا به لا يجد أمامه إلا أن يدير التليفزيون ويلقى بنفسه أمامه ليصبح متلقيا سلبيا لأى شيء يطرأ على الغير أن يشغله به، مهما كانت سخافته ، بل ومهما أدرك المشاهد نفسه درجة سخافته. فإذا لم يكن الحل في التليفزيون أو الفيديو ، فإنه في معظم الأحيان في أشياء شبيهة بهما ، تتلخص كلها في الحصول على سلع أو خدمات حديثة يلهى بها نفسه ويعفيها من المسئولية عن قضاء وقت الفراغ «بحرية». ولكن إذا كان قضاء وقت فراغ يتطلب بدوره سلعًا وخدمات جديدة ، شأنه بالضبط شأن إشباع حاجاته الأساسية من مأكل ومشرب وملبس ومأوى.. إلخ ، فإن إطالة وقت الفراغ لا يبدو على الإطلاق أنه سوف يعفى الإنسان من العمل ، بل ولا حتى من العمل الشاق ، كل ما في الأمر أن العمل سوف يتحول من إنتاج الضروريات إلى إنتاج ما نسميه أحيانا بالكماليات. ولكن هذه «الكماليات» لم تعد في الحقيقة كذلك ، بل لقد أصبح لها نفس الإلحاح الذى كان مقصورًا على السلع الأساسية كالغذاء والكساء. وإذا بالقهر باق معنا كما كان ، ولكنه تحول فقط من استعباد لإنتاج المزيد من الغلال وأمثالها ، إلى استعباد لإنتاج المزيد من التليفزيونات أو أجهزة الفيديو أو آخر موضات الملابس أو أجهزة الحلاقة الكهربائية.. إلخ.

لقد سبق أن رأينا أن لكل صورة من القهر أيديولوجياتها ونظرياتها التى تبررها ، فلابد أن نتوقع إذن أن يظهر من الأيديولوجيات ما يبرر

هذه الصورة الجديدة من القهر. وقد ظهرت هذه الأيديولوجية بالفعل ، وهى تدور باختصار حول الترويج لإشاعة كاذبة من أساسها ، ولكن الغالبية العظمى من الناس قد صدقتها للأسف ، وهى أن ما كان يسمى بالكماليات هو فى الحقيقة ضروريات. هذه العقيدة التى انتشرت انتشار النار فى الهشيم هى عقيدة جديدة تماما ، إذ لم تشهد البشرية عصرا اعتقدت فيه الغالبية العظمى من الناس أنهم يحتاجون حاجة ماسة إلى كل هذه الأشياء ، من السيارة ذات النوافذ التى تفتح أتوماتيكيا ، إلى الكوكاكولا كوسيلة للقضاء على العطش ، إلى أجهزة التكييف ، إلى أجهزة غسل الصحون الكهربائية.. الخ ، ويشعرون بالحرمان الشديد إذا لم يحصلوا عليها. ويدخل فى نفس الباب ، ويكوّن جزءا مهما من هذه الإشاعة ، تعريف «التقدم» و «التنمية» بأنهما زيادة ما فى حوزة الفرد من سلع وخدمات ، حتى ولو كانت هذه السلع والخدمات من نوع هذه الأشياء التى ذكرتها حالا.

هذا التغير الجوهرى والخطير فى «أيديولوجية القهر» يمكن التعبير عنه بالقول بأن القهر بعد أن كان إجباريا طوال عصور التاريخ الماضية أصبح الآن قهرًا اختياريا. كان الناس فى الماضى يقبلون القهر صاغرين للحصول على ما هو حقا من الضروريات ، سواء كانوا عبيدًا أم أقنانا أم عمالاً مأجورين ، ولكنهم كانوا يعرفون فى معظم الأحيان أنهم واقعون تحت قهر.

أما الآن فهم يقبلون القهر دون أن يعرفوا حقيقته . فإذا كان يمكن تصوير مراحل التاريخ السابقة فى صورة رجل يجرّ ساقية بدلا من الثور، وكلما توقف ضرب بالسوط فيضطر إلى الاستمرار فى السير ، فإن الصورة

فى الحالة الثانيـة هى صورة رجل يجر الساقية وقد علقت أمامـه جـزرة أو ثمرة يشتهيها ولكنـه لا يبلغها أبـدًا ، فكلما اقترب منها ابتعدت عنه.

هذه هـى العبودية الاختيارية ، وهـى أعلى مراحـل القهر ، لأنك لا تستطيع أن تثور ضدها إلا إذا أدركتها وأنت لا تدركها ، والعـالم كلـه لا هم له فيما يبدو إلا أن يضمن أن تستمر فى هـذه الحالـة مـن انعدام الوعى.

obeikandl.com

(٢)
نحن المستهلكون المساكين

منذ شهور قليلة قام أحد كبار المذيعين بالتليفزيون البريطانى بإلقاء محاضرة فى الولايات المتحدة، ثم نشرت فى إنجلترا، أحدثت ضجة واسعة، وأثارت اهتماما كبيرا بين المشتغلين بالإعلام، وإن كانت القضية التى أثارها بسيطة وواضحة، ولعل الكثيرين قد عبروا عنها قبله فى أحاديثهم الخاصة وتعليقاتهم العابرة. ربما كان هذا دليلا جديدا على أن أهم الأفكار وأخطرها هى الواقع أبسطها.

هذه الفكرة البسيطة التى عبر عنها الإذاعى الكبير عى أن نشرات الأخبار فى الإذاعة والتليفزيون، بل وفى وسائل الإعلام الغربى بصفة عامة، تركز تركيزا غريبا على الأخبار السيئة، ولا تفسح مكانا يذكر للأخبار السعيدة. يقول الرجل إن الذى يشاهد نشرة أخبار فى التليفزيون (فى الدول الغربية على الأقل) يخرج بانطباع سيئ جدا عن هذا العالم، إذ أن خبرا بعد خبر ينهى إلى علمه كارثة، ومصيبة بعد أخرى، سواء تعلق الأمر بسقوط طائرة، أو غرق باخرة، أو اغتصاب النساء فى البوسنة، أو اختطاف طفلة بريئة فى أحد شوارع إنجلترا، أو انتحار أحد السياسيين فى فرنسا، أو مقتل أحد السياح فى فلوريدا، أو ازدياد حجم البطالة فى ألمانيا، أو فضيحة رشوة فى إيطاليا، أو انفصال ولى العهد البريطانى عن زوجته، أو تدهور حالة ميزان المدفوعات البرازيلى.. الخ. فلا تنتهى نشرة الأخبار إلا وقد تركت فى نفس المشاهد مرارة أو سخطا

أو غضبا أو خوفا ، إذ لو كان العالم هو حقا كما تصوّره نشرات الأخبار: مسلسل لا ينتهى من القتل والسرقة والاغتصاب والتبطل والتضخم والطلاق والرشوة.. إلخ ، فما جدوى العيش أصلا؟

ولكن لحسن الحظ أن الأمر ليس كذلك فى الحقيقة. فإلى جانب حوادث القتل والانتحار هناك أيضا أخبار زواج سعيد أو ميلاد طفل جميل . وإلى جانب أخبار المجاعات والثورات فى العالم الثالث هناك أخبار عن انخفاض معدل الوفيات وارتفاع السن المتوقع للحياة . وإلى جانب أخبار سقوط الطائرات ، هناك اكتشافات جديدة فى عالم الطب تقلل الألم وتعطى الإنسان عمرا جديدا . وإلى جوانب حوادث الاعتداء على حفنة من السياح فى إحدى البلاد، هناك ملايين السياح الذين تركوا بيوتهم وعادوا إليها سالمين بعد أن شاهدوا أجمل مناظر فى العالم وتذوقوا مختلف أنواع المأكولات الشهية التى لم يكونوا قد ذاقوها من قبل.. الخ. الحياة باختصار تحتوى على هذا وذاك، فلماذا نجد نشرات الأخبار تكاد تقتصر على المؤسف والمحزن والمقلق؟

هكذا تساءل الرجل ومعه كل الحق . ولأن الحق معه فقد أثارت محاضرته الناس وعلقت عليها سائر الصحف، وتعاطف معه الكثيرون الذين بادروا بالكتابة إليه وإلى الصحف يعبرون عن تأييدهم لرأيه. وإذا بالمسئولين عن جهاز التليفزيون وعن إعداد نشرات الأخبار يصابون بدهشة شديدة إذ لم يكونوا يظنون أن سخط الناس على نشراتهم هو بهذا الانتشار وبهذه القوة.

ولكن يبقى السؤال: إلى أى مدى يمكن أن يأمل فى أن يحدث هذا الاحتجاج أثرا يذكر فى محتوى نشرات الأخبار؟ إلى أى مدى يمكن أن

يخضع رجال الإعلام للرغبات الحقيقية للرأى العام، التى عبر عنها مؤخرا بهذه القوة وهذا الوضوح؟

أصارح القارئ بأننى لست كبير الأمل فى أن يستجيب رجال الإعلام لهذه الرغبة، وإن كنت لست واثقا تمام الثقة فى السبب الحقيقى لهذا الإحجام. إن لدىّ عدة تفسيرات محتملة لتلك الظاهرة التى نشكو منها: غلبة الأخبار السيئة فى نشرات الأخبار، وتعمد استبعاد الأخبار السعيدة، وتخفيض الزمن المتاح لها إلى أقل حد ممكن. من بين هذه التفسيرات أرجح التفسير الآتى: إن المسئول عن هذه الظاهرة هو المجتمع الاستهلاكى. فقد أصبحت برامج التليفزيون خاضعة لرغبة المعلنين عن السلع: تختار البرامج التليفزيونية بحيث تناسب الإعلانات، بدلا من أن تختار الإعلانات بحيث لا تؤذى البرنامج التليفزيونى. ونجاح الإعلان يقاس بكثرة عدد المشاهدين ومدى تأثرهم به، والأخبار السيئة والمقلقة تدفع الناس دفعا إلى متابعة الأخبار أملا فى الحصول على طمأنينة لا تأتى أبدا، وهذه المتابعة المستمرة للأخبار تضمن أن يقع أكبر عدد من المشاهدين فريسة للإعلانات.

هذا من ناحية، ولكن من ناحية أخرى نجد أيضا أن الشخص القلق والمتوتر والخائف هو مستهلك جيد. فمن المعروف مثلا أن القلق كثيرا ما يدفع إلى زيادة استهلاك الطعام، وكأن هذا الاستهلاك يتضمن تعويضا عن شىء مفقود. ولكن هذا الأمر صحيح أيضا فيما يتعلق بسائر السلع: إذا شعر المرء بالقلق كثيرا ما يذهب لشراء شىء، أى شىء، تماما كما نحاول تهدئة الطفل الذى يبكى ويصرخ بإعطائه لعبة أو قطعة من الحلوى. فإذا كانت وسائل الإعلام قد أصبحت فى خدمة مروّجى السلع، فإن من

مصلحة الجميع (إلا المستهلك المسكين بالطبع) أن يعم القلق وينتشر التوتر. وما هو أفضل لذلك من نشرات أخبار كئيبة ومقلقة؟

إن الأمر لا يحتاج إلى مؤامرة بين المسئولين عن التليفزيون وبين منتجي السلع والمروجين لها. كل ما يحتاجه الأمر هو أن تتفق مصلحة هذا مع مصلحة ذاك، فتحدث النتيجة الوخيمة التي ندفع ثمنها نحن المستهلكون المساكين.

obeikandl.com

(٣)

حلــول عــالمية
لمشكلات عالميـة

فى زيارة حديثة لى لتونس، شكا لى صديق تونسى مـن ظـاهرة جديـدة وغريبة على المجتمع التونسى، شدت انتباهى وقذفت بفكـرى فـى أكـثر من اتجاه. قال إن له أخا، فى سن المراهقة، لا يكاد يكـف عـن مشـاهدة برامـج التليفزيـون الأجنبيـة، بخاصـة الإيطاليـة، التـى أصبحـت سـهلة الالتقاط لأى صاحب تليفزيون فـى تونـس، خصوصـا مـع تقدم شبكات الاتصال وشيوع ورخص مـا يسـمى الطبـق أو «الـدش» (Dish) الـذى يمكنك من التقاط عدد كبير جدا من القنوات التليفزيونية من مختلف دول البحر المتوسط. كان الذى يفزع صديقى التونسى ما امتلأت به هذه البرامج المقبلة من الشاطئ الآخر، من مناظر الجنس الفاضح والجريمة، وانصراف طلبة المدارس انصرافا مقلقا عن استذكار دروسـهم،، وإضاعتهم الوقت فـى ما لا يفيد، حتى بدأ المدرسون والمهتمون بشؤون التعليم يعبرون عـن قلـق حقيقى من أن شبكات التليفزيون الأجنبية أصبحت منافسـا حقيقيـا لهـم فى الاستحواذ على عقل التلميذ واهتماماته.

لقد اعتـبرت الأمـر علـى درجـة كبـيرة مـن الأهميـة وأكـثر اسـتحقاقا للاهتمام من كثير من الموضوعات التى لا يكف المثقفـون العـرب عـن عقـد الندوات والمؤتمرات لمناقشتها . هل فى الأمـر غـزو ثقـافى جديـد؟ أو هـو مثال جديد للانصراف عن الإنتـاج إلى محـض الاسـتهلاك؟ أو هـو تبديـد لطاقة عربية ثمينة فى ما لا يفيد؟ أو هو فقدان العـرب تدريجيـا، للثروة التى كانوا يعلقون عليها آمالهم فى مستقبل أفضل، وهى الشباب؟ أو كل

هذا فى الوقت نفسه؟ ثم إن الخطورة تزداد لأن الأمر يبدو وكأن لا حيلة لنا معه، فالغرب لا يأتيك هذه المرة بالمدافع والقنابل التى يمكنك ولو بالكثير من المشقة ، الاستعداد لها، وتحصين نفسك ضدها أو حتى إعداد القوة الكافية لمواجهتها، ولا يأتيك هذه المرة بالسلع التى يمكنك أن تمنعها أو تفرض ضدها الحواجز الجمركية العالية. لا إنها تأتيك هذه المرة مع الهواء الذى تتنفسه . إذا أقفلت دونها الباب، دخلت من النافذة، وإذا أغلقت النافذة تسربت من خلال مسام الجدران. ثم إنها تأتيك هذه المرة لا بالتهديد والوعيد، ولكن بمنتهى النعومة واللطف، وهى لا تجبرك على شىء ، مطمئنة إلى أنك ستسعى إليها بقدميك بمجرد أن تسمع عن اقترابها منك.

□□□

وعدت إلى مصر من دون أن أحسم الأمر فى ذهنى، والقضية معلقة بالنسبة لى ، لا أدرى ما الذى يجب أن يكون موقفنا إزاءها. وما أن قضيت بضعة أيام فى مصر حتى تفجرت فى الصحف والمجلات قضية الطبق أو «الدش» (Dish) الذى انتشر فى مدينة بعينها من مدن مصر، هى مدينة دمياط الساحلية ، بدرجة تفوق درجة انتشاره فى العاصمة نفسها ، فدمياط أقرب من غيرها من المدن المصرية إلى دول معينة فى شمال البحر المتوسط اشتهرت برامجها التليفزيونية بموضوعات ومناظر الجنس الشديدة الإثارة والممتدة طوال ساعات الليل، ولكن دمياط مشهورة أيضا، من قديم ، بنشاط صنّاعها ودأبهم وحرصهم على إتقان ما يصنعون، بخاصة فى صناعة الأثاث الفاخر، الذى لقى نجاحا كبيرا فى التصدير وجلب لمصر كميات لا يستهان بها من العملات الصعبة،

فإذا بأصحاب هذه الصناعات يفاجأون بعمالهم من الشباب يسهرون طوال الليل فى مئات من المقاهى المغلقة على روادها، يشاهدون فيها فيلما بعد آخر من هذا النوع من الأفلام، ويتقاضى أصحاب المقاهى مقابل هذا أثمانا باهظة. ويصل هذا الشباب الليل بالنهار مما هدد عددا من الصناعات تهديدا خطيرا ؛ وزاد من قلق الآباء والأمهات على أولادهم، وقلق أرباب الصناعة على صناعاتهم، وقلق المسئولون عن الأمن مما بدا لهم من انفلات الأمور من أيديهم ، ومن تحول مقاهى دمياط من أماكن بريئة للراحة إلى نوادٍ ليلية.

واتخذ محافظ دمياط قرارا جريئا بمنع المقاهى من عرض هذه الأفلام ، وقام بنزع هذه الأطباق التى ركبها أصحاب المقاهى ، وهدد المقاهى الأخرى بالمصير نفسه إذا لجأت إلى هذا السلوك.

ولكن الأمر يبدو لى ، طبعًا ، وكأنه لم يحسم قط ، والقضية مازالت قائمة كما هى. هل يمكن أن نتصور حقا أن بإمكاننا عزل ثقافة عن أخرى – فى العصر الذى نعيش فيه – بقرار من محافظ مهما كانت قوته وثقته بسلامة موقفه؟ هل يمكن أن تفرض رقيبا على الناس لتطمئن إلى نوع الهواء الذى يتنفسونه وأنه لا يختلط بشىء ترغب فى منعه؟ قال البعض إن الحل الحقيقى هو أن نقوى مؤسساتنا الاجتماعية وندعم علاقاتنا العائلية ونصلح نظام تعليمنا ، فكل هذا هو الحامى الحقيقى لأبنائنا من الثقافات الغازية. ولكن هل نستطيع هذا حقا فى الوقت الذى زحف فيه أثر هذه الثقافات على عائلاتنا وأخذت فعلا فى تفكيك روابطنا الأسرية ، وأثرت فى نمط حياتنا الاقتصادية تأثيرا انعكس بدوره على نوع العلاقات الاجتماعية السائدة ، وعلى نظامنا التعليمى وحياتنا الثقافية بأسرها؟ .

قال آخرون إن الحل هو فى تقوية وسائل إعلامنا وجعلها قادرة على منافسة وسائل الإعلام الغازية ، فهل هذا القول يقصد به الجد أو المزاح؟ لقد أصبحت وسائل إعلامنا ، هى نفسها ، خاضعة خضوعا يزداد يوما بعد يوم لسيطرة أصحاب المال ومروجى السلع الغربية ، الذين ينتجون تلك البرامج نفسها التى نشكو منها.

سألت نفسى: هل نحن نخطئ إذ نظن أن مشكلة عالمية يمكن أن يكون لها حل محلى أو وطنى؟ ألا يصح القول أن العالم ، وقد أصبح قرية صغيرة ، لابد من أن يحل مشكلاته عقلاء هذه القرية جميعا مجتمعين ، ولا يمكن أن يكون الحل فرديا يقوم به رب كل أسرة بمفرده؟

(٤)

الحرب ضد المجتمع الاستهلاكى

مهما بلغ سخطنا على الغرب أحيانا ، ومهما انتقدنا أخطاءه ، وفى بعض الأحيان ، جرائمه ، وأيا كان رأينا فى تجاوزات الحضارة الغربية الحديثة ورفضنا لمساوئها ، فإننا من حين لآخر نرى فى الحياة الغربية بعض السمات التى لا يسع المرء إلا أن يكبرها ويقدرها كل التقدير ، وأن يتمنى لأمته أن يكون لها مثلها. إنى لا أقصد بذلك سلع الغرب وأجهزته الكهربائية والإلكترونية ، وإنما أقصد أشياء أخرى بعيدة كل البعد عن مظاهر المجتمع الاستهلاكى ، بل هى نقيضها تمامًا.

من ذلك ما حدث مؤخرا فى مدينة بريطانية هى «بريستول» ، حيث قامت إحدى الشركات التجارية الشهيرة (تسكو) بشراء قطعة أرض تقع فى إحدى ضواحى المدينة ، لتقيم عليها متجرًا كبيرًا (سوبر ماركت). استشاط الناس فى المدينة غضبًا ، واجتمع مئات من شباب المدينة لتنظيم احتجاجهم على إقامة المتجر فى هذا المكان ، وللتشاور فيما يجب عمله . أما سبب الغضب والاحتجاج فهو أن هذه الأرض التى اشترتها الشركة تقع فى منطقة غابات رائعة الجمال ، وإقامة متجر عليها يتطلب قطع عدد من الأشجار الباسقة البديعة التى يقدر عمر بعضها بتسعة وثمانين عاما. وإقامة متجر من نوع متاجر (تسكو) من شأنه أن يضفى على المنطقة درجة عالية من القبح. ففضلا عما تؤدى إليه من قطع الأشجار ، وإقامة مبنى حديث قبيح المنظر ، من النوع الذى يبنى عادة لهذا

الغرض، حيث لا تراعى إلا الاعتبارات الاقتصادية البحتة ، فإنها لابد أن تؤدى شيئا فشيئا إلى استئصال المزيد فالمزيد من الأشجار ، أولا لإفساح مكان لانتظار السيارات ، ثم لبناء متاجر أخرى جاءت لتصبح قريبة من (تسكو) . ولابد أن تعج المنطقة شيئا فشيئا بالحركة والضوضاء، وبتلوث الهواء ، وإذا بالمنطقة الطبيعية الرائعة الجمال تتحول إلى نسخة مكررة من وسط المدينة بكل قبحه وضوضائه وتلوثه.

قرّر شباب المدينة أن يبذلوا كل ما في وسعهم لمنع هذا الأمر. وإذا بهم يذهبون فيحتلون المكان ، بعد أن هيّأوا أنفسهم للإقامة فيه أياما وأسابيع إذا اقتضى الأمر ، وتناوبوا فيما بينهم حراسة الأشجار طوال ٢٤ ساعة في اليوم لمنع قطعها. لجأت الشركة إلى القضاء ، وحيث أنها أصبحت هي المالكة قانونا للأرض ، وليس في القانون ما يمنعها من بناء متجر في هذا المكان ، أصدر القضاء حكمه لصالحها ، وطلبت الشركة تنفيذ الحكم. وأمرت الشرطة الشباب بالانسحاب من المنطقة فلم يمتثلوا للأمر ، ولجأ بعضهم رجالاً ونساء ، إلى تسلق بعض الأشجار إلى ارتفاع يزيد على ١٨ مترا ، حيث أقاموا على أعلى فروعها ، معلنين أنه إذا أرادت الشركة قطع الأشجار فلتقطعها وهم فوقها ، فإذا سقطت الأشجار سقطوا معها. وإذا بالشرطة تضطر إلى إرسال قوات يصل عددها إلى مئات ، تصدرت صورهم الصحف ، وهم يسيرون وسط الغابات وكأنهم ذاهبون إلى معركة ، لحماية الشركة وهي تقوم بعملية قطع الأشجار.

واضطر الشباب إلى الانسحاب محزونين مكتئبين بعد أن قضى بعضهم ٢٨ ساعة في أعلى الشجر ، هطلت عليهم خلالها أمطار شديدة ، ومع ذلك لم يرضخوا إلا بعد أن جاءهم رجال الشرطة يهددونهم بالاعتقال ، واعتقلوا بعضهم بالفعل.

على الرغم من انسحابهم فإنهم فى رأيى أحرزوا انتصارا عظيما . لقد عبروا عن شىء من أنبل وأجمل ما فى الإنسان ، واستطاعوا أن يحصلوا على شعبية ودعاية لقضية نبيلة ، هى قضية الدفاع عن الجمال ، وحق الإنسان فى حياة نظيفة ، وفى التعبير عن نفسه فى مواجهة تسلط وجبروت الشركات التجارية ، ورفض المجتمع الاستهلاكى الذى يغزو الإنسان شيئا فشيئا داخل نفسه ، ويحرمه بالتدريج من التمتع بأجمل ما فى الحياة.

حاولت الشركة دون جدوى تحسين صورتها أمام أهل المدينة ، فأخذت تقول وتكرر أنها لا تنوى أن تفعل هذا أو ذاك ، وأنها ستراعى الجمال بأكثر مما يريدون ، وأنها لن تقطع من الأشجار إلا الحد الأدنى الضرورى ، وستقوم بزراعة غيرها ، وأنها ستقوم بتقديم خدمات جديدة للمدينة.. الخ. وهذا كله مكسب حققه الشباب المتمسك بحقه ، ولكن المكسب الحقيقى هو أنهم سجلوا موقفا وأعلنوا رأيا وتمسكوا به لآخر لحظة ، على أمل أن يأتى جيل تال من الناس ينجح فى تغيير القانون لصالح الناس ، ويجعل قيم الجمال والحرية أعلى من قيم الاستحواذ والثراء.